



الفصل الثاني

مدرسة بغداد

أو

مدرسة العراق

القرن السابع الهجرى

(الثالث عشر الميلادى)

obeikandi.com

قلد المسلمون الفرس والروم فى ضرب نقود عليها صور، وأخبار ذلك مفصلة فى رسالة المقرئزى عن النقود الإسلامية وفى بعض كتب الأدب والتاريخ، وقلدوهم أيضا فى التصوير على المنسوجات وعلى الأوانى الزجاجية وعلى غير ذلك من أثاث بيوتهم، وكانت الحمامات أهم الدور التى عنى المسلمون بالنقش على جدرانها، وما لبثت صناعة التصوير فى الإسلام أن انتقلت إلى الكتب، وكان التطور والمدارس التى سبدا الحديث عنها فى هذا الفصل.

على أنه يجدر بنا قبل ذلك أن نذكر أن الموضوعات كثيرة التكرار فى التصوير الفارسى، ويرجع ذلك إلى أن المصورين إنما كانوا يعملون لتزيين دواوين الشعراء وقصصهم وبعض كتب الأدب والتاريخ، فاختر السلف من كل ذلك موضوعات نسج على منواله الخلف فى تصويرها.

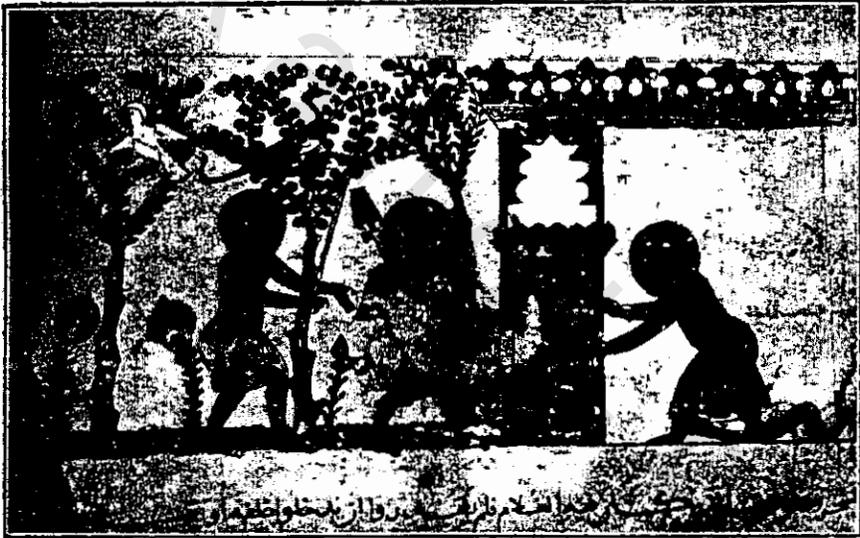
وكانت أقدم المخطوطات الإسلامية المصورة بعض ما ترجم وألف فى الطب والعلوم والحيل الميكانيكية، وأشهرها كلها كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل للجزرى، ثم كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى؛ ولقيت الكتب الأدبية حظاً وافراً من العناية وخاصة كتاب كليلة ودمنة ومقامات الحريرى، وكانت الصور تجيء فى كل هذه الكتب إيضاحاً للمتن وشرحاً له.

أما الفرس فقد كانت أكبر عنايتهم بتصوير كتب التاريخ والتراجم التى يخلد فيها ذكر ملوكهم، ثم دواوين الشعراء وقصصهم وخاصة «بستان» سعدى و«كلستانه»، ثم ديوان حافظ والمنظومات وتزين بالصور فى أكثر عصور التصوير الفارسى.



(شكل ٣)

الساعات ذات الطواويس - مدرسة العراق. القرن السابع الهجري
من كتاب الحيل الميكانيكية للجوزي ومحفوظة الآن باللوفر



(شكلا ٤، ٥)

فوق - شاب لسعته حية وأقبل طبيب لإسعافه

تحت - رجل لسعته حية يستغيث

من ترجمة كتاب بلالينوس محفوظة بالمكتبة الأهلية في فينا. القرن السابع الهجري

وقد أشرنا فى آخر الفصل السابق إلى أن أولى مدارس التصوير فى الإسلام هى مدرسة بغداد أو مدرسة العراق، وينسب إليها ما رقمه الفنانون من صور مصغرة فى المخطوطات الإسلامية التى يرجع عهدها إلى خلافة العباسيين.

ولست هذه المدرسة بالرغم من هذا الاسم عربية بحتة كما أنها بعيدة عن أن تكون إيرانية خالصة وإن كانت إيران تكاد تكون القطر الوحيد الذى أينعت فيه هذه الثمرة ومهدت الطريق لمدارس أخرى بلغ فيها التصوير الفارسى أوج عظمته.

ولا شك فى أن أكثر العاملين على تكوين مدرسة بغداد كانوا من مسيحي الكنيسة الشرقية على اختلاف طوائفها كما كان منهم أبطال النهضة العلمية لترجمة الكتب القديمة إلى اللغة العربية، وكما كان منهم أبطال النهضة العلمية لترجمة الكتب القديمة إلى اللغة العربية، وكما كان منهم أيضا أول الفنانين الذين علموا العرب العمارة وصناعة الفسيفساء. على أن المسلمين ما لبثوا أن أخذوا من هذه الصناعات والفنون بنصيب يذكر، وكان أول من فعل ذلك الفرس فأصبح أكثر الفنانين منهم، واستطاعت إيران بعد الفتح المغولى أن تنمى مواهب أبنائها وأن تسير بهذه البذور فى طريق الكمال متأثرة بالشرق الأقصى وأواسط آسيا حتى نتج الفن الذى نعرفه فى القرنين التاسع والعاشر الهجرى (الخامس عشر والسادس عشر).

هذا ولما كانت موضوعات الصور فى مدرسة بغداد تتكرر بدون تغيير كبير، فإن ما وصل إلينا منها يعتبر مثالا لما كان عليه التصوير الإسلامى فى عصوره الأولى بالرغم من أن أقدم المخطوطات التى تشمل هذه الصور لا يرجع إلى ما قبل منتصف القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى).

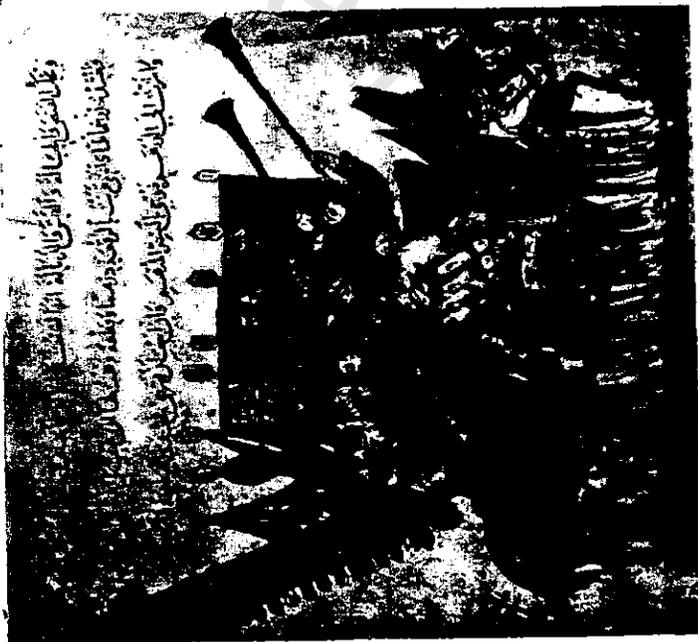
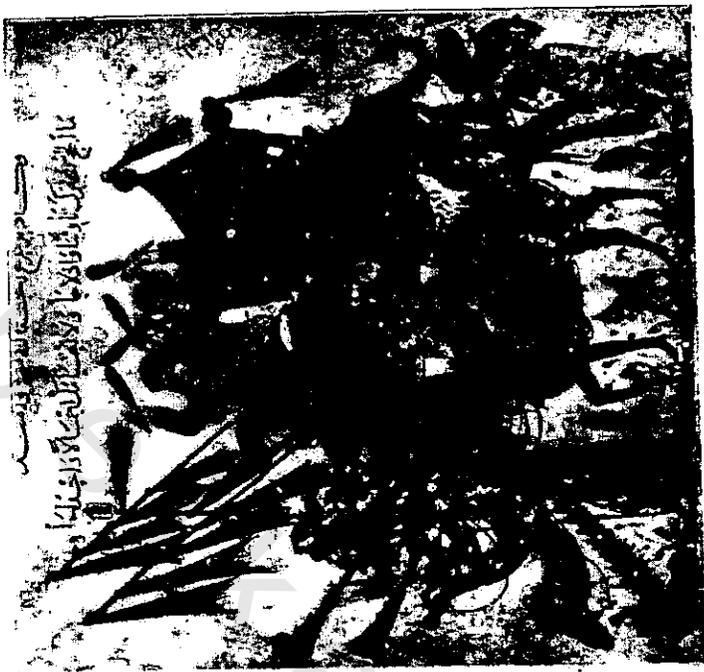
ومما يجب ملاحظته أن الصور في مخطوطات مدرسة بغداد تكون جزءاً من المتن يقصد بها شرحه وتوضيحه، وليست ميداناً لإظهار المواهب الفنية؛ وهذه المدرسة عربية أكثر منها فارسية، والأشخاص فيها تلوح عليهم مسحة سامية ظاهرة قى الأنوف، تغطى وجوههم لحي سوداء، وفي وجوههم شيء كثير من النشاط ودقة التعبير، وليس فيها الرشاقة والدعة اللتان نعرفهما في الفن الفارسي.

ولعل أبداع الصور في مدرسة بغداد تلك التي نراها في مقامات الحريري، فأكثرها يدل على مهارة كبيرة في تصوير الجموع وحركاتها المختلفة ودقة عظيمة في تصوير الحيوانات^(١).

على أن الشبه بين بعض صور هذه المدرسة وبين الصور عند مسيحي الكنيسة الشرقية يبلغ أحياناً درجة لا نستبعد معها أن تكون هذه الصور الإسلامية من صنع المسيحيين أنفسهم على الرغم من القرون الخمس التي مضت بين ظهور الإسلام وتاريخ المدرسة التي نحن في صددنا، فأكاليل النور التي تحيط برؤوس الأشخاص وإيضاح الأنف بخط بارز من اللون والطريقة الاصطلاحية البسيطة التي ترسم بها الأشجار والملابس المزركشة والمزينة بالزهور وفروع الأشجار والملائكة ذوو الأجنحة المدببة، كل هذا وغيره نجده مشتركاً بين الصور عند مسيحي الكنيسة الشرقية وبين الصور التي رقمها فنانون مدرسة بغداد^(٢) - ولعل هذا الشبه وتلك الصلة يرجعان إلى تأثر الفنانين البيزنطي والإسلامي بالفن الساساني كما يظهر ذلك جلياً في صناعة النسيج.

(١) انظر اللوحة ٤ شكلى ٦ و ٧.

(٢) قارن اللوحتين السابعة والثامنة من Arnold : Painting in Islam بين صحيفتى ٦٤ و ٦٥.



(شكلا ٦ و ٧)

منظران من مقامات الحريري - المدرسة العراقية سنة ٦٣٤هـ

من مخطوط شيفير بالكتبة الأهلية بباريس - عن مارتن

ومن أهم مصورى هذه المدرسة عبد الله بن الفضل الذى كتب وصور سنة ٦١٩هـ (١٢٢٢) مخطوطاً من كتاب خواص العقاقير كانت منه صور فى مجموعتى الدكتور زره (Sarre) ببرلين والدكتور مارتن (Martin) باستوكهلم^(١)، والتأثير البيزنطى ظاهر فى أشخاص هذه الصور الذين يلبسون ملابس واسعة مزينة بفروع نباتية، وأوراق هذا المخطوط مبعثرة الآن فى متاحف العالم ومجموعاته الفنية، ومنها واحدة فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك تمثل طبيباً يحضر دواء للسعال، وقد استعملت فى هذه الصورة ألوان خمسة: الأخضر والأزرق والأحمر والأصفر والذهبي، وثانياً الملابس فيها منسقة وبعيدة من الطبيعة حتى أصبحت موضوعاً زخرفياً^(٢)، ومن هذا المخطوط صورة أخرى فى متحف اللوفر تمثل أيضاً طبيباً يحضر دواء^(٣).

وقد كتب يحيى بن محمود بن يحيى بن الحسن الواسطى سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٧) نسخة من مقامات الحريرى رقم فيه ماينوف على مائة صورة يمثل فيها نوادر أبى زيد السروجى وبديع حيله، وهذا المخطوط محفوظ الآن بالمتكبة الأهلية بباريس أهدها إليها المستشرق شيفير (Schefer). وكل هذه الصور وثائق قيمة عن الحياة والنظم الاجتماعية والعادات فى ذلك العصر^(٤)، ومنها صورتان تمثلان مؤكّب عروس فى هودج على جمل يشيعه فرسان يحملون الأعلام ويقرعون الطبول ويعزفون على الآلات الموسيقية^(٥)؛ وبين كثير من هذه الصور وبين النقوش التى كشفتها دار الآثار العربية على جدران

(١) راجع Migeon : Manuel d' Art Musulman ص ١٢٦ .

(٢) انظر Dimand: A Handhook of Mohammedan Decorative Arts ص ١٩ .

(٣) انظر Stchokine : Les Miniatures Parsanes ص ٢٩ .

(٤) انظر اللوحات ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ من Blochet: Les enluminures des manuscrits

(٥) انظر اللوحة ٤ شكلى ٦ و ٧ .

أحد الحمامات الفاطمية قرابة كبيرة، ولا غرابة في ذلك، فإن سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ (١١٧١) كان إيذاناً بانتقال كثير من فناني مصر إلى بلاد الجزيرة حيث أصبحت بغداد مركزاً كبيراً للفن والكتب.

وهناك نسخ أخرى من مقامات الحريري موضحة بالصور المستعة في المكتبة الأهلية بباريس، وفي المتحف الآسيوي ببلينينجراد، وفي من المتاحف والمجموعات^(١).

وفي المتحف البريطاني مخطوط من مقامات الحريري تاريخه سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣) كتب لعامل خراج في دمشق. وبقي بعض صور الأشخاص فيها غير تام التلوين مما يظهر لنا الطريقة التي كان الفنانون يتبعونها في تحديد الصور قبل تلوينها.

وفي مكتبة قينا مخطوط آخر من مقامات الحريري أحدث عهداً وعليه توقيع أبي الفضل بن أبي إسحاق ومؤرخ سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٤)، وقد بدأت الصناعة تزول عنها بساطتها الأولى وتسير في طريق التعقيد، ومن أبداع صور هذا المخطوط اثنان: الأولى تمثل أميراً على عرش ويده كأن على الطريقة الساسانية ويحف به رجال الحاشية ويحميه ملكان بأجنحة مزركشة، وأمام العرش موسيقيون وبهلوان يطربون الأمير^(٢)، وتمثل الصورة الثانية شخصاً يزور صديقاً ألزمه المرض الفراش، وزينت ملابس الزائر وأصحاب البيت وسرير المريض بفروع نباتية ومخطوط هندسية^(٣)، وفي هذا المخطوط تأثر بفن التصوير في أواسط آسيا.

(١) راجع Binyon, Wilkinson & Gray : Persian Miniature Painting ص ٢٤ وما بعدها.

(٢) انظر اللوحة ٥ شكل ٨.

(٣) انظر شكل ١٨ من Kühnel: Miniaturmalerei...



(شكل ٨)

أمير على عرشه وأمامه يهلوان المدرسة العراقية سنة ٧٣٤هـ
من مخطوط لمقامات الحريري بالمكتبة الأهلية في فينا

وقد ظن بعض العلماء أن جزءاً من هذه الصور التي تنسب إلى مدرسة بغداد إنما صنع في أفغانستان تحت رعاية الدولة الغزنوية حيث نظم الفردوسى الشاهنامه في غرفة تزينها الصور كما يقولون - ولكن الحقيقة أنه ليس هناك دليل ثابت على أنه صنع في أفغانستان أو في بخارى أو خيوه أو الرى صور تخالف في الطراز ما ينسب إلى مدرسة بغداد، فإن الأثر الفارسي كان سائداً في شرق الإمبراطورية الفارسية وفي وسطها - فضلاً عن ذلك فالخزف الذي ينسب إلى مدينة الرى يحمل نقوشاً كثيرة الشبه في الصناعة واللون بتلك التي وصفناها في هذا الفصل.

وهناك صور في مجموعة (البوم) بمكتبة استانبول نشرها الأستاذ ساكسيان في كتابة عن التصوير الفارسي، وأرجع تاريخها إلى النصف الثاني من القرن السادس الهجري (النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي) مدعياً أنها من صناعة هذه المدرسة التي ظهرت في شرقي إيران^(١)، ولكن يخالفه في الرأي أكثر مؤرخي الفن الإسلامي، والواقع أن هذه الصور لا يمكن إرجاعها إلى ما قبل العصر المغولي^(٢).

وقد امتد أثر مدرسة بغداد إلى بقية أجزاء الإمبراطورية الإسلامية كسورية ومصر، وهناك أوراق من نسخة من كتاب الحيل الميكانيكية للجزري كتبها سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤) محمد بن أحمد بن ناصر الدين محمد الذي كان في خدمة الملك الصالح صلاح الدين من المماليك البرجية بمصر، وكلها موزعة بين المتاحف والمجموعات الأثرية في أوروبا وأمريكا - وفي اللوفر

(١) انظر A. Sakisian: La Miniature Persane ص ٤٠ وما بعدها. وانظر اللوحة ٩ شكل

(٢) راجع B. Gray: Persian Painting ص ٣٦.

بباريس واحدة منها تمثل ساعة مائية وجهها على شكل نصف دائرة ترتكز على حامل فيه جامات فيها طواويس (١).

وصفوة القول أن أهم ميزات مدرسة بغداد هي تصوير الأشياء على ما هي عليه دون تجميل أو تكلف، وأكثر ما يظهر تأثير مسيحي الشرق في صناعتها في تصوير الأشخاص على الطريقة التي استعملوها في تصوير قديسيهم وفلاسفة اليونان، وفي التي تمثل فيها الأشخاص وثنايا الملابس؛ أما التأثير الإيراني فظاهر في الزخرفة، وفي النسب بين أجزاء الجسم المختلفة في تصوير الأشخاص..

(١) انظر اللوحة ٢ شكل ٣ وقارن Stchoukine: Les Miniatures Persanes ص ٣٠ - ٣٢.